جوانزو.. أو «كانتون» مصنع العالم.. ودكانه

فيما كان الليل يهبط على اول يوم ابدأ فيه استكشافي مدينة جوانزو أو غوانزو الصينية عرفت متأخرا انها ذاتها مدينة كانتون التي ارتبطت لدينا ذهنيا برحلة السفينة صحار من عمان إلى الصين كعلامة على الحضور العماني المبكر في هذه البلاد. كنت أتتبع ما يمكن أن يعرّفني على المدينة من معلومات، هي الواقعة في جنوبي الصين، على ضفة نهر اللؤلؤ، وتعد عاصمة مقاطعة «كونغدنغ». تقع على ضفة نهر اللؤلؤ، رآها العرب تلك المناطق المفصولة فأطلقوا عليها اسم «كانتون»، لتكون ميناء مهما مرّ عليها التجّار من بلاد العرب وفارس والهند، ووصل إليها ابن بطوطة.

محمد بن سيف الرحبي

في القرن السادس عشر وصل إليها البرتغاليون خلال بحثهم عن مصادر جديدة لتجارة الحرير والفخاريات، وتتابع البقية عليها، جاءها الإنجليز في القرن السابع عشر ثم الفرنسيون والهولنديون في القرن الثامن عشر، لكن الإنجليز تحصلوا في عام ١٨٤٢ على وضع يقدم لهم امتيازات تجارية كبيرة عبر «إتفاقية نانكين» التي جعلت ميناء المدينة مفتوحا على التجارية الخارجية رغم صعوبة المهمة، فالبلاد محظورة على الأجانب، لكن بعد «حرب الأفيون الثانية»، وفي عام ١٨٦١ للميلاد تنازلت الصين للأوروبيين عن «جزيرة شاميان» وتقع أيضا على ضفاف نهر اللؤلؤ، مما أعاد الحيوية إلى حركة التجارة.

وأمضي في تتبع تاريخ المدينة، غوانزو أو كانتون، في عام ١٩١١ أصبحت المدينة معقلا للوطنيين الصينيين، بما جعلها في قلب التاريخ الصيني المعاصر حيث أعلن الزعيم «صن يات سين» فيها ميلاد جمهورية الصين» كما احتضنت مقر حزب «قومنغدانغ» القومي، وبعد سنوات، وخلال الحرب العالمية الثانية احتلها اليابانيون (١٩٣٨-١٩٤٥) بما عرّض مبانيها للخراب، لكن الصين استعادتها مع نهاية الحرب لتبدأ معركة أخرى هي تعميرها، وبعد أربع سنوات كانت مزدهرة وتبدأ رحلة أن تكون «إحدى أهم مدن الصين اقتصاديا في سياق الاستثمارات الحكومية الضخمة التي وجّهتها إليها، والتي جعلتها من أكبر الموانئ الصناعية والتجارية في الصين.

في غوانزو كل شيء يطلبه المرء من تجارة، وصناعات، كأنها حقا مصنع العالم، علما أن التقديرات لحجم الناتج الإجمالي للمدينة يحسب بأكثر من مائة مليار دورلارا.. وفق تقديرات ربما تجاوزتها حركة الاقتصاد المنفتحة في المدينة / الميناء.. بمراحل.

اكتشافات.. على مهل

بجوار سير الحقائب كانت الأصوات تدعونا لأخذ شرائح الهاتف، وقبل أن استلم حقيبتي من السير كان هاتفي يتحدث الصينية ويقدم مميزاته على خدمة الإنترنت، لكن الشروط لم تكن متوقعة، فلن اعرف طريق الوصول إلى ثلاثة مواقع أساسية في علاقتي مع هذه الشبكة العنكبوتية.. بريدي الإلكتروني عبر جوجل.. وفيسبوك وتويتر، لان الحكومة الصينية حرمت هذه المواقع، واحسب أن المنع اقتصادي أكثر من كونه خوفا أو مصادرة للحرية، إذ يمكن كسر المنع بمهارات الهاكرز، وما أذكاهم في التقنية، وما أسهل الخدمات المعروضة في الشوارع وواجهات المحلات التي تعرض برامج «كسر المنع» نهارا جهارا.

وإذ ننتقل عبر المترو كانت المدينة تفصح عن صورتها العامة، صورة من الصين المكتظة بالبشر والحياة، لنقرأ أي حكاية عليها هذه المدينة، مستوى الهدوء والنظافة والنظام والملابس وغيرها من العلامات الدالة على مستوى المكان.. الاقتصادي والثقافي، اللغة الصاخبة على الألسن رغم قلة عدد المتحدثين، ورقي العربات بعبورها بين محطات أنيقة وحديثة كما تبدو.

كان الليل يهبط أبكر مما اعتادته عقارب وقتنا في مسقط حيث فارق التوقيت أربع ساعات، وكان البحث عن مطعم عربي ضرورة قصوى وفق الحالة المزاجية، وكان الحظ معنا لوقوع فندق إقامتنا قريبا من سوق يمكن القول إنه عربي، اللوحات على واجهات المحلات تتحدث بلغة الضاد، والمتسولون يشبهوننا، ويستخدمون القرآن في حثّ العابرين من العرب والمسلمين على التصدق، في أحد المحلات التجارية الصغيرة المنزوية في مدخل صغير لبضعة محلات شعرت أنني في أحد دكاكين سوق داخلي بمكة المكرمة.

تجاورت المطاعم العربية وتنوعت.. ولكل منها مذاقها ومزاجها، وأسعارها التي تخرجك من بساطة العيش الصيني ورخص منتجاته.

السدّة، مطعم يمني يشعرك أنك في صنعاء، لغة النداء بين العاملين.. والزبائن الذين توزعوا على جنسيات شتى، أغلبها عربية، نحن من عمان بجوار آخرين من اليمن والسودان والعراق ومصر ولهجة خليجية لم نتبيّن مصدرها جيدا.. والأكلات ما الذّها.. الخبز الملوّح بجوار الفحسة والمندي وغيرها مما اجتاحه المطبخ اليمني لمدن العالم، متتبعا المزاج العربي في الطعام

زحام المترو

نصب تذكاري لرحلة السفينة صحار

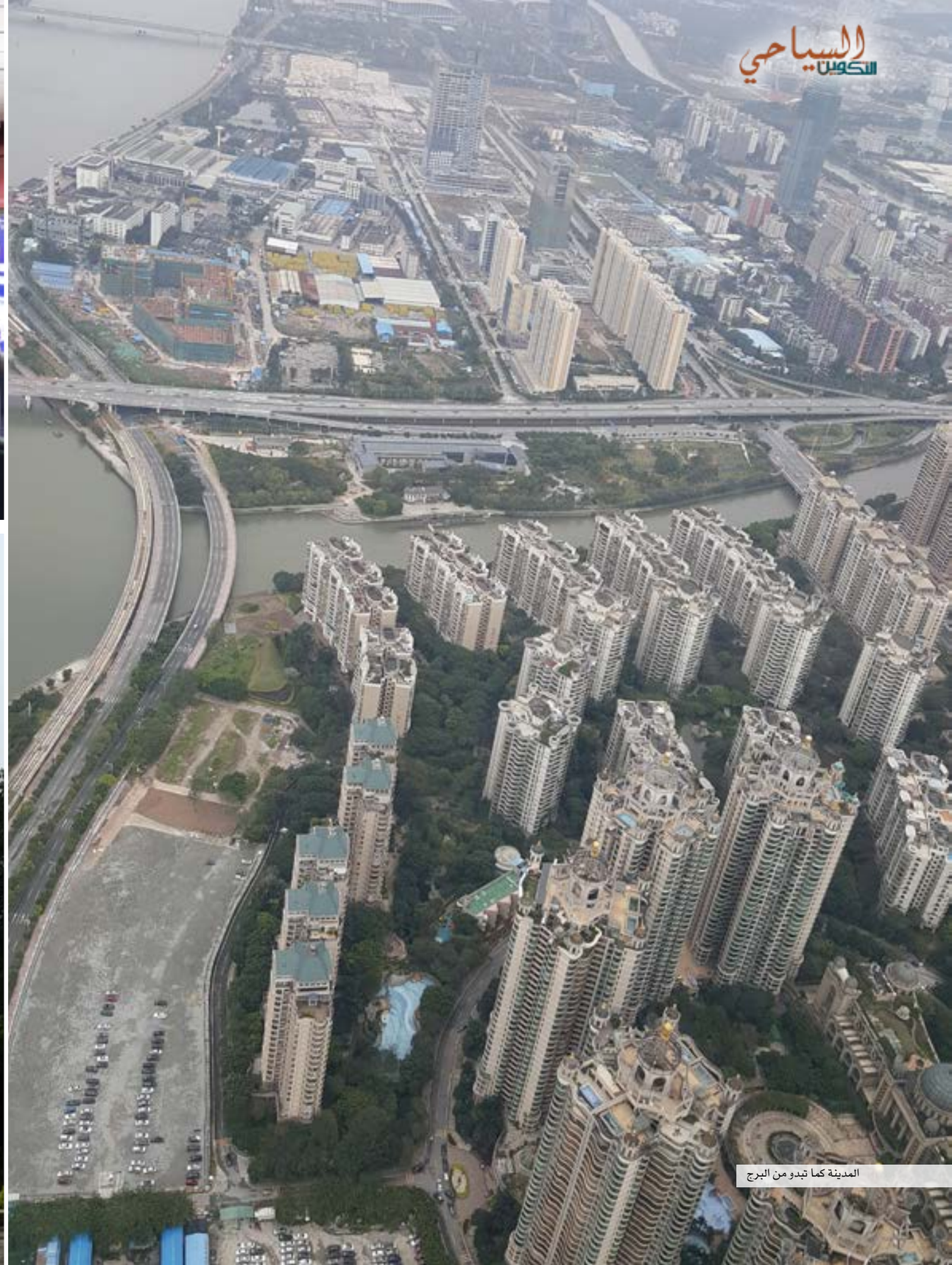

المدينة كما تبدو من البرج

أينما حل وارتحل.

ليس ببعيد عنه تغيّرت الملامح، قال مرافقنا، يونس، الشاب العماني الذي اختار الصين ليتعلم فيها، ومنها لغتة قومها، أن أغلب الساكنين هنا من الأفارقة ويمتلكون محلات في منطقة تعدّ إفريقية بامتياز.. في هذه البلاد، رغم العدد الهائل للبشر فيها، هناك متسع لشتى الأجناس والجنسيات، تذكرت رواية بيرل باك «الأرض الطيبة» ولا ادري لماذا خطرت ببالي رواية «بجعات برية» ليونغ تشانغ.. ملحمة الصين وثورتها الحمراء عبر ثلاثة أجيال ترويها ثلاث نساء.

عالم.. يعمل

البلدان التي تعمل هي القادرة على اجتياز المحن (على أشكالها وتعددها) وفرض حضورها على المشهد العالمي.. اقتصادا وسياسة.. أما البلدان الخاملة فلها الحق فقط في مضغ الشعارات حول الهوية والخصوصية والوطنية.

سألت صاحبي عما اذا يتحدث الصينيون وهم يتزاحمون في محطات المترو؟ لأن لغتهم نشعر بها أشبه بشخصين يتخانقان فيعلو الصوت.. أجابني انهم لا يتحدثون إلا في العمل.. المصنع أو الشحنة المرسلة والأخرى المستقبلة، وقليل عن حياتهم. سألته عن السياسة.. فقال انهم يتجنبون الحديث عنها، أحسست أن ذلك سر تفوق الصين.

عندما يتحدث معظم الناس عن السياسة تصاب البلدان بحالتين: ضعف في الرؤية لأن السياسة أصبحت سلعة رخيصة قابلة للتداول، وينسى الناس العمل لأن السياسة في بلدان عدة تصيب المرء بالإحباط وعسر الهضم.. أعني عسر الفهم.

ملايين البشر يتحركون في الشوارع يوميا ولم أسمع صوت صراخ أو تدافعا بالأيدي.. يسيرون ببرمجة عصبية تعرف حدود السير فالمدينة غوانزو معروفة بمصانعها وأسواقها وتنوعها البشري حيث يأتيها رجال الأعمال من كل الدنيا بحثا عن لقمة عيش.. عبر صفقة تجارية، كل حسب وزنه في عالم المال.

يعيش في الصين ٥٦ قومية، أشبه ببلدان عدة داخل بلد واحد، ولأن العمل شعارهم فلم نسمع عن أزمات جوع تعرفها هذه البلاد الهادرة ببشر يفوق عددهم سكان عشرات البلدان الأخرى.

في مجمع تجاري رأيت النموذج الصيني على الواقع.. مبنى مكون من عدة طوابق وكل طابق بمئات المحلات الصغيرة فلا يبيع هذا ما يبيعه ذاك، محل متخصص في جزئية بسيطة لكنها تملأ المكان، تأتيه طلبية بآلاف القطع منها وأغلبها للتصدير.. فتعمل وراء هذا المكان الصغير مصانع أو بيوت في تخصص تبدع فيه، وكما عرفت ان مصانع الصين تنتهج هذه الرؤية فمثلا يوجد مصنع كبير لإنتاج مكيفات حافلات النقل فقط. مبنى آخر خصص للإلكترونيات.

أقول في نفسي: مدهشة هذه البلاد، عينها على كل شيء.. لا تريد أن تترك للعالم فرصة أن يلتقط أنفاسه وهو يركض خلفها، الأسعار متقاربة مع ما عهدناها عليه إلا بفارق بسيط.. لكن الشراء بالكميات يخفّض سعر السلعة إلى النصف، والكمية تعني ربما خمسة آلاف قطعة.. ذلك يعني أنك ستجعل مصنعا يعمل بآلاف العمال وقتا سيتمدد بمشروع طلبية أخرى. . وهكذا.

الاقتصاد الصيني لا يعرف الهدوء.. ويتمتع بميزان تقني عالي المستوى، دولة ثرية، لكن إذا أصاب العمال الغنى فإنهم يتكاسلون، وذلك يعني تراجع الإنتاج، وذلك يعني تراجع الفائض التجاري.. وطالما المؤشرات جيدة فإن نهوض التنين يسير كما يراد له.. داس التنين على حريات أو حقوق بشر في مجتمع يراد له أن يعمل ويعمل.. ويعمل أما العالم الغربي (المنافق) فإن مسألة حقوق الإنسان خاضعة لمصالحه.. ولتذهب هذه المقولات إلى الجحيم طالما ان الاقتصاد الصيني به منافع.. مشتركة.

في مجمع «العالم» يمكنك قراءة الرؤية الصينية بشكل واضح، التفكير في المستقبل التقني، لغة الإدهاش في عالم تكنولوجي يعرض بضاعته بشكل علمي مصغّر، والجموع واقفة في طوابير تنتظر فرصتها بتذاكر لا تعد رخيصة، ورغم انحياز المدينة للصناعة والتقنية لكن مباهجها الخضراء جديرة بالتأمل، حدائق وساحات فتنة جمالية رغم أنف البرد.

في مسجد صحابي!

صادفنا عبدالولي، الشنجاني، لدى خروجنا من مسجد ابن أبي وقاص، الواقع في حديقة كبيرة وجميلة ومعماره الصيني لا يوحي انه مسجد لولا قبة صغيرة أعلاه، يوجد ضريح ابن أبي وقاص قريبا من المسجد لكن عبدالولي يشكك أو ينقل الشك أنه الصحابي المعروف سعد بن أبي وقاص، وربما صحابي أو شخص آخر، وفي مطعم بنجابي تحدث كثيرا عن ظروف الأقليات المنتمية للبلدان الإسلامية كون أن عبدالولي هذا درس في باكستان وسافر إلى أفغانستان واشتغل في السعودية والعراق ويتحدث عدة لغات.. ولهجات.

بحثت عن معنى الشنجان كما رواها لنا، أثارتني المفردة، وجدت المعلومات عنها كالتالي: تنطق سنجا، وتعني باللغة الصينية التخوم أو الحدود الجديدة، لكن لها معنى أعمق حيث تدل على معنى «إعادة الأرض إلى بلادها من جديد» فهي مقاطعة صينية «تتمتع بنظام إداري خاص، تقع في أقصى شمال غرب البلاد، عاصمتها مدينة أورومتشي» كما تدل موسوعة ويكيبيديا، والتسمية التاريخية للمنطقة شي يو (المساحة الغربية أو المغرب باللغة الصينية)، وهي ذات أغلبية مسلمة لمرورها بطريق الحرير، وهناك من لديه نزعات انفصالية داخل الصين يراها منطقة خاصة للأويغور ويسمونها تركستان الشرقية والاسم ينقسم إلى كلمتين «ترك» و «ستان» ومعناها أرض الترك، وفي خلال الحرب الداخلية الصينية نالت استقلالها عام ١٩٤٤ ولكن عادت إلى أحضان الدولة الجديدة عام ١٩٤٩ عندما تأسست جمهورية الصين الشعبية وإعلان قيام الشيوعية ضمها الصينيون إلى الصين فصارت مقاطعة صينية. وتطورت كثيرا خلال ثلاثين سنة الآخيرة وهي غنية بالنفط والغاز الطبيعي وخامات اليورانيوم.. والمصدر ذات الموسوعة أيضا.

في الحي العربي

كان لافتا في الحي العربي المطاعم التي تقدم وجباتها بأسعار غالية كأنما هي في لندن أو غيرها من مدن اوروبا، ينطبق هذا سائر البلاد التي توجد فيها كأنما تتعامل مع السائح العربي على أنه غنيمة لها فضل السبق والأولوية على جيبه طالما أنه لا يبخل على معدته.

سألت عامل الفندق عن القنوات العربية في شاشة تلفزيون الغرفة قال إنها موجودة قبل اكتشاف خلية تبتغي تفجير إحدى أهم محطات المترو في المدينة.

علمتني غوانزو أن من أراد لقمة العيش عليه أن يستيقظ باكرا وينظر إلى البعيد.. كما علمتني الصين منذ زمن أن مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة.. وقد يبدو رقم (ألف) بعيدا في مسار قوم لا يستيقظون مبكرا ولا ينظرون إلا إلى أقدامهم.. ولذلك لا تتنقل القدم من مكانها لتبدأ خطوتها الأولى.

رأيت في مبنى للإلكترونيات، أشبه ببقعة شعبية، الأيادي التي تتحرك بنشاط وهمة تغلّف هذه البضاعة وتحمل تلك، كأنها في بداية عملها صباحا مع ان الوقت ليلا، وبدأت المحلات تغلق أبوابها، بحثت في الأعين عما نسميه ارهاقا وفي الوجوه عما ندعوه تعبا، وفي النفوس عن ذلك المنتشر بيننا، الإحباط، فلم أجد سوى ابتسامات وعيون لم أر في مآقيها سوى.. الهمم العالية، تسأل البائع عن بضاعة ما فيقول لك: «لحظة».. وعبر جهازه النقال يبحث لك فورا ويأتيك الرد بالسعر مع الكمية الممكنة في هكذا سعر، وهناك أجهزة تنتشر في المحلات للتأكد من سلامة العملة الورقية المقدمة لهم.

حدثني صاحبي يونس عن مشاريع صينية خرافية، بناء فندق ضخم خلال ثلاثة أيام

الشاي الأخضر و نظرة وطفولية

مشهد النهر قريبًا من نصب رحلة سفينة صحار

مجسم السفينة صحار في المتحف

ضمن مشروعها في المباني الجاهزة.. هي تسابق العالم برخص منتجاتها مقارنة بالدول الصناعية الأخرى والتي وضعت مصانعها في مدن صينية استفادة من رخص المواد الخام والايدي العاملة.

في إحدى حافلات النقل العام لم تكن هناك تذاكر، نصعد للحافلة بهدوء ونظام واضعين المبلغ في صندوق بجوار السائق، لننضم إلى البقية جلوسا أو وقوفا كما يحدث في عربات المترو الذي تعج محطاته بتلك الآلاف على مدار اليوم.. أيضا، وفي كل محطة مجمع تجاري يصيبك بالحيرة لدهشة معروضاته.

بجوار نهر اللؤلؤة لمحت ما ذكرني ببلادي، نموذج دائري لبرج صغير.. داخله اللوحة التذكارية لرحلة السفينة صحار إلى كانتون، في مطلع ذلك اليوم شاهدت أيضا مجسما للسفينة في متحف بالمدينة.

المطر يستيقظ باكرا

المدينة التي تستيقظ على وقع المطر مدينة تهديك خطوات مبللة، وتمنح الأرض خصوبة تتسلل إلى روحك لتسير بإيقاع سريع.. حتى تلحق القطار في موعده.. ولا تبقى تراقب حسرتك على ما فاتك.. من دهشة.

البشر الذين يتحركون تحت المظلات يمنعون القطرات من تقبيل رؤوسهم.. وحدي كنت مبتهجا بالمطر والبرد.. وبالمدينة، كأنما تصافح أشياء جديدة، وتلتقي امرأة جميلة للمرة الأولى، وتبقى دهشتك لأنها ابتسمت.. فقط.

المطر يصيبنا بالجمال.. ويقول للروح انتشي.. مهما بالغ الجسد في تستره خلف أقمشة يظنها تحميه.. بينما العينان تبالغان في تتبع قطرات المطر، ربما لأنها ترى في الماء حكاية تقرؤها فتتبلل الحروف..وتتبتل القصيدة.

أسير وراء شاعرية اللحظة، البرد الذي لا يحميني منه ردائي الثقيل، مدينة تهديك المطر فتصنع بعض الفرح..وهناك مدينة تأتي بالمطر حلما حينما تضع امرأة وردة في يدك فتشعر أن السماء تمطر. . فرحا، يحتاج الورد إلى قطرات مطر ليدركه الفرح فتتبلل أوراقه ببهجة.. كأنها ابتسامة المرأة التي تحب.

روبوت مجسم مصنع من هواتف نقالة

أتخيل نفسي كأني أسير في هذه المدينة الصينية للمرة الأولى، لعلي أقبض على الدفء كشال على كتف حبيبة باغتتها «ديمة» فأرادت يد عاشقها مظلة.. وقلبا لا يصاب بانفلونزا النسيان، هكذا تنفتح المدينة عليّ في لحظة ممطرة، كأنما ليست هي المصنع الكبير، الرأسمالية المتواطئة مع الاشتراكية في محاصرة الإنسان وتبضيعه، كان الممر يسير بين ضفتين من أجهزة إلكترونية لا عدّ لها.. لم تفطن واحدة منها لتوثيق ابتسامة قرأت شيئا.. لم أستطع معرفته وحدي، قل للمطر وحده انك جئت بغربتك.. وحاول أن تقنعه يسافر معك. للمطر ذات الرائحة.. لكنه برائحة الياسمين إذا لامس تربة صعدت روحك منها. . وفيها.

ابتسم طفل صيني في وجهي كأنما لمح شيئا في عيني.. غافلني راكضا نحو البعيد، كأنما قلت له: لا تقصص رؤياك هنا.. غدا ستجدها معلبة تباع في دبي أو في محل فقير في أوغندا. .

ولا ضمانات على الاستخدام.. حيث الرؤيا التي تباع لا ترد ولا تستبدل، وقلت لنفسي: لا تقصص عشقك على امرأة هنا.. ستضحك حتما. . وعينها على محفظتك.

كان على زاوية شارع متشرد يغوص في عزلة الرصيف، لكنه ممسك بشاشة صغيرة في يده، حاسوب لوحي يقضي معه أزمته، على مقربة مجمع أنيق به مطعم شدّني إلى تأمله، القدر الساخن تغلي مكوناته، وإمكانك أن تطبخ وجبتك كما تحب ذائقتك.

وكان لا بد للمدينة من برج تشتهر به، كما تفعل مدن كثيرة حول العالم، برج اتصالات على الأقل، برج غوانزو يرتفع ٦٠٠ متر، وأعلى شرفة سياحية تطل على المدينة على ارتفاع ٤٥٤ مترا، يقال إن كلفته بلغت ٣٠٠ مليون يورو، انتهى بناؤه عام ٢٠٠٩، وافتتح رسميا بمناسبة دورة الألعاب الآسيوية ٢٠١٠.

لكن لم يكن من مناص لتوديع هذه المدينة الوادعة تحت مطارها وبردها رغم كل الزحام.. وداعا غوانزو. . أو كانتون كما عرفها العرب قديما، لم تكن سوى فاصلة أو تفصيل صغير في قارة تسمى الصين.. وفي كل مدينة فيها حكاية. . وحكمة.

الاسماء العربية في حي العرب

مطعم يطبخ الزبائن فيه وجبتهم